تاريخ الإرسال: 28-02-2018
تاريخ القبـول: 29-07-2018

علاقة إنثوغرافيا التواصل بسيمياء الثقافة
-القدرة التواصلية مقابل القدرة اللّغوية-

عباس محمد الطاهر
طالب دكتوراه جامعة عبد الرحمان ميرة- بجاية

الملخص:

تعد سيمياء الثقافة من أكثر فروع السيمياء تفاعلا مع النظريات التواصلية واللّسانية، ذلك أنها استمدت من هذه المدارس آلياتها العملية بعد أن طّورتها بما يتماشى مع الطرح السيميائي للعلامة، ومن أبرز هذه النظريات التواصلية نظرية إثنوغرفيا التواصل، والتي تتجلى من خلال هايمز hymes وكامبرزKampers، اللذان طوّرا مفهوم القدرة اللّغوية التي اشتهر بها تشومسكي *Chomsky* إلى مفهوم القدرة التواصلية والتي تقومفيها الثقافة الاجتماعية بدور أساسيفي تحديد الدلالة، ويمكن تتبع مفهوم القدرة التواصلية من خلال نموذج التخاطب عند ديل هايمز الذي حدد فيه العناصر الأساسية الكفيلة بتحقيق القدرة التواصلية موضوع بحثنا قيد الدراسة.

الكلمات المفاتيح: إثنوغرافيا ؛ تواصل ؛ سيمياء الثقافة ؛ القدرة التواصلية ؛ القدرة اللّغوية

Resume

L'une des théories communicatives les plus importantes à partir de laquelle la sémiotique culturelle a pris les mécanismes de son travail est la théorie ethnographique de la communication, qui se manifeste à travers Hymes et kampers, qui ont développé le concept de la compétence linguistiquede Chomsky Au concept de compétence de communication, dans lequel la culture sociale joue un rôle clé dans la détermination de la signification, et peut suivre le concept de

compétence communicative à travers le modèle de communication chez Dell Hymes, qui identifie les éléments essentiels pour atteindre la compétence de communication Le sujet de notre recherche.

. **Mots-clés:** Ethnographie ؛ Communication ؛sémiotique culturelle compétence de communication؛compétence linguistique

التواصل في سيمياء الثقافة:

شغل موضوع التواصل العديد من الباحثين في اللّسانيات، حيث اشتغل عليه بلومفيلد، تشومسكي، وكذا جاكبسون، كما كان للّسانيات الاجتماعية علاقة وثيقة بالتواصل، حيث تجدر الإشارة إلى أنّ اللّسانيات الاجتماعية وثيقة الصلة بعلم الاجتماع والسلالات البشرية والجغرافيا البشرية، لاسيما علم اللّهجات. كما أنّها "ميالة للأخذ بفكرة الكلام أو اللّغة التي لها وظيفة هي وظيفة التواصل، بل إنّها تتبناها وتعتبرها من المسلمات النظرية لديها."[1] ومادام موضوع بحثها هو المجتمع فالأحرى بها أن يكون التواصل من أبرز النقاط التي تتناولها وتدرسها، وهذا ما نجده عند الرواد من أتباع اللّسانيات الاجتماعية، والذين نخص بالذكر منهم هايمز وكامبرز "اللّذان عارضا القدرة اللّغوية Compétance Linguistique عند تشومسكي بالقدرة التواصلية Compétance communicative، فهايمز وكامبز ينطلقان في أعمال بحثهما من المقام التواصلي، ويحاولان جاهدين أن يحللا –ككل– أفعال الكلام والأفعال الأخرى الاجتماعية والثقافية."[2] إنها إذن العلاقة الوثيقة بين مجال بحث اللّسانيات الاجتماعية من جهة، وبين علم الاجتماع والثقافة من جهة ثانيّة؛ ما يحيلنا إلى سيمياء الثقافة فيما يأتي:

---

[1] – رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس، المغرب، ط1 2007، ص 201.

[2] –المرجع نفسه، ص201–202.

يصنّف أمبرتو إيكو "الأنساق الدلالية جميعا اعتمادا على معيار ثقافي محض، فالأنساق جميعا أنساق ثقافية ترتب انطلاقا من الأنساق الأقل ثقافيا إلى الأنساق الأعقد ثقافيا، ومن الملاحظ هنا أنّ الأنساق الطبيعية والعضوية لا تشكل صنفا خارج ثقافي، وبذلك فهي نتاج ثقافي للإنسان، إلاّ أنّه نتاج ثقافي بسيط وعفويّ، أمّا الأنساق الأعقد ثقافيا، فتوجد في قمتها الخطابة ثم التواصل الجماهيري، ثم الإبداع الفني ثم الأنواع السننيّة الثقافية. وما بين هذين الصنفين من الأنساق توجد أنساق ماعدا السلوكات الحيوانية لأن الحيوانات جماعات غير ثقافية إلاّ أنّها اندمجت في المحيط الثقافي للإنسان"[3]، وصارت تنتمي إليها بفعل حضورها في وسطه الثقافي والاجتماعي، بل في أحيان عديدة أصبح حضور الحيوان جزءا من ثقافته، فالفرس والناقة هما عنوانا الإنسان العربيّ، افتخر بهما ومدحهما ووصفهما في أشعاره، بل وصار وصف الراحلة (الفرس/النّاقة) في القصيدة العربية مكونا من مكونات عمود الشعر العربي، كما لم يتوقف اهتمامه به في أشعاره فقط بل واهتم به في مجال الدرس[*].

اهتمت سيمياء الثقافة بالثقافة والمجتمع وبالتواصل الجماهيري الذي تحكمه أطر ثقافية في المجتمع، فكان المعيار الثقافي الأساس الذي ينبني عليه تصنيف الأنساق الدلالية عند أمبرتو إيكو. نجد بموجب ما تقدم أن للثقافة حضورا قويا في إثنوغرافيا التواصل، فهي وثيقة الصلة بالأنتولوجيا التي هي"علم اجتماعي يفسّر الظواهر التي يصفها علم الإثنوغرافيا، ويدرسها دراسة نظرية تسمح بتصنيفها وتعليلها،"[4] كما أنّها وثيقة الصلة بالأنثروبولوجيا، وهذا ماجعلها تستفيد من الاتجاهات الاجتماعية، ومن النظريات التواصلية الأخرى، فالهدف الذي تسعى إلى الوصول إليه هو "أن تؤسس نظرية للتواصل كنظام

---

[3]– حنون مبارك، دروس في السيمياء، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987، ص28.

[*]– أفرده الجاحظ بكتابه الشهير الحيوان، وتتبع فيه مميزات الحيوان وخصائصه المميّزة.

[4]– جميل صليبا، معجم الفلسفة، ج1، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لبنان، دط، 1982، ص37.

ثقافي، ولذلك فقد ارتكزت على إثنولسانيات بواس وسابير وورف، ومن جهة أخرى على لسانيات جاكبسون، هذه النظرية القديمة الحديثة التي تريد وصف التعامل أو السلوك اللّغوي لجماعات ذات ثقافات مختلفة في الزمان والمكان، وكذا وصف عمل الكلام في الحياة الاجتماعية."[5] إنها النظرية التي تسعى إلى تحقيق نظرية جامعة بين الإثنولسانية والوظيفية الجاكبسونية. الأمر الذي جعل للتواصل ستة عوامل مرتبطة بست وظائف، كما أنّها تعد امتدادا للأنثروبولوجيا، وقد تطرق العديد من الأنثروبولوجيون إلى الأنساق التواصلية غير اللّفظية، "وقد تبيّن غوفمان أهميّة العناصر غير اللّفظية (الإشارية، وغيرها) في التواصل وفي اللّغة عموما، وذلك بالنسبة إلى السياق الاجتماعي، بعيدا عن الملفوظات."[6] فالتواصل لا يتحقق فقط بالعناصر اللّفظية بل يمكن أن يتم تواصل مع الآخر خارج إطار اللّغة اللّفظية، وهذا ما نلحظه في سلوكات النّاس وتصرفاتهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم، فالمجتمعات تتواصل فيما بينها وفق عاداتها وطقوسها المميّزة لها، وفي هذا المقام نلفت الانتباه إلى جهود وأبحاث الأنثروبولوجيين في هذا المجال، فـ"مارسيل موس (M.Mauss) أنتروبولوجي فرنسي–1959 (1872) اشتهر بمقالته عن الهبة المنشورة سنة 1923. وقد لاحظ في مجتمعات بدائية متنوعة أنّ الهبة والهديّة هو عمل يستدعي التبادل أي إجبارية إعطاء هبة مقابلة (لا يمكننا أن نعطي دون أن نأخذ والعكس بالعكس)، فاستنتج موس من ذلك أساس كل صلة اجتماعية يعرفها عقدا تبادليّا."[7] إنه العقد التبادلي الذي يتواصل من خلاله الأفراد في هذه المجتمعات، فالهدية أو الهبة التي يقدمها أحدهما للآخر تتضمن معنى

---

[5] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص203.

[6] – فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط1، 2007، ص92.

[7] – المرجع السابق، ص91.

تواصليا، فيفهم من خلالها وجوب إعطاء هبة أو هدية تكون مقابل الشيء المعطى له، تحولت في هذا المقام الهدية أو الهبة إلى رسالة غير لغوية، وكان النشاط البشري المتمثل في رد الهديّة من قبيل التوافق الثقافي في هذا المجتمع، فدور الثقافة المجتمعية دور فعال في تحقيق التواصل بين أفراد هذه المجتمعات

إلى جانب استفادة النظرية التواصلية من الأنثروبولوجيا فإنها ارتكزت كذلك على نظرية التواصل لجاكبسون، وباشتغال أصحابها ميدانيا في مجال التواصل، "كانت إرادة المؤسسين في الميدان أن يبتعدا عمّا كان قد طرق من قبل، وحبّذا الانطلاق من عمل وصفي، إثنوغرافي للكلام ومن التواصل غير الكلامي الذي يشكل ظواهر اجتماعية ثقافية، تكشف هي بدورها عن عناصر للسلوك الإجمالي للكائنات البشرية."[8] وهذا الباب من التواصل غير اللّغوي هو من صميم الدرس اللّساني، وهم من أبرز الإمدادات التي أمدت بها هذه النظرية مجال السيمياء، فهذه الإرهاصات في مجال التواصل وهذا الاهتمام بالثقافة هو نقطة انبنت عليها سيمياء الثقافة.

ركز رومان جاكبسون جهوده في ميدان التواصل، وتوصل إلى أنّ التواصل يقوم على ستة عوامل رئيسية، وقد بيّن ذلك في دراسته للوظيفة الشعرية التي ترتبط بالرسالة، وعوامل التواصل عند جاكبسون هي (المرسل، المرسل إليه، السياق أو المقام، الرسالة، الاتصال، السنن)[**] وقد أنطلق أصحاب نظرية إثنوغرافيا التواصل من النقطة التي توقف عندها جاكبسون في عوامل التواصل، وقد كان "همّ هايمز وشغله الشاغل أن يظهر العنصر السابع

---

[8] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص204.

[**]– ربط جاكبسون هذه العناصر الستة بستة وظائف تكون لصيقة بها، وتكون درجة حضورها في النصوص متفاوتة، وذلك بالنّظر إلى نوعية النّصوص، (المرسل/انفعالية، المرسل إليه/افهاميّة، السياق/مرجعيّة، الرّسالة/الشعرية، الاتصال/انتباهية، السّنن/ميتالسانية) أنظر كتاب الشعرية لرومان جاكبسون.

من التواصل. فقد ذكر جاكبسون ستة، وأضاف هو –أي هايمز– وكود أناف La situation عنصر المقام "Good enough[9]. يعد عنصر المقام من أبرز الإسهامات والإضافات التي جاءت بها هذه النظرية، والتي عارض بها كما أسلفنا مفهوم القدرة التواصلية لتشومسكي، التي تقول بقدرة الإنسان على تكون عدد لا متناهي من الجمل انطلاقا من معرفته لقواعد اللّغة ومفرداتها، ولكنها لم تلتفت إلى مقام التواصل الذي طرحه هايمز في نموذجه التواصلي.

أهمية المقام في تحقيق التواصل الفعال:

يحضر عنصر المقام في دراسات فريك Frake، ويظهر ذلك جليا في بحثه المتعلق بطلب الشرب من الفلاحين في جزر الفيليبين؛ البحث معنون <<كيف نطلب الشرب من سوبانون 1964>> وهو في هذا البحث الذي تتبع فيه مراحل اللّقاء والتخاطب ومقاصد الأفعال والوظيفة المقترنة بها، يشير "إلى القدرة التواصلية، فانطلاقا من معطيات مضبوطة حول سلوك كلامي وغير كلامي لأناس ما، درسهم أثناء تناولهم لمشروب طقوسي استنتج فريك Frake العلاقات الحميمية التي توجد بين بعض الاستراتيجيات المقالية لمقام التواصل."[10] فالملاحظ أنّ الكلام يأخذ أشكالا بحسب المقام التواصلي الذي يقال فيه، وهو في ذلك منوط بدور يؤديه تبعا لتغيّر المقام، والمقصد من هذا البحث إبراز أهمية مقام التواصل، والبرهنة على أنّ "معرفة مفردات مجتمع ما، لن تؤدي بنا إلى شيء ذي بال، إذا لم نكن نعلم متى وكيف نستعمل هذه العبارة أو تلك؟"[11] فلا يكفي معرفة مفردات لغة أو مجتمع معين من أجل تحقيق تواصل فعال مع أفراد هذا المجتمع، بل علينا معرفة المقام المناسب

---

[9] – رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص204.

[10] – المرجع نفسه، ص206.

[11] – المرجع نفسه، ص206.

لاستعمال هذه الألفاظ، وحين ذاك نتمكن من التواصل معهم، خاصة إذا تعلق الأمر بالطقوس التي تعد من الرصيد الثقافي للمجتمعات.

تتضح أهمية المقام في التواصل من خلال البحث الذي قام به فريك بعنوان –كيف نطلب الشرب من سوبانون 1964– وقد بيّن فريك "أنّه عندما تطلب أن تشرب من شعب من الفلاحين القاطنين في جزر الفلبين، لا يكفيك أن تتقن معجم ولا قواعد لغتهم بل عليك أن تمتلك قدرة فعالة تواصلية–حسب مفهم هايمز–، ويعني ذلك أن تعرف علاقات اللّغة مع المقام الاجتماعي–الثقافي، وكذا معرفة ما يجب أن يقال في الوقت المناسب، فمثلا عندنا المشروب الغازي المخمر الذي يشبه الجعّة يقدم في نوع من اللّقاء الخاص، ألا وهو الحفل. وبعد ذلك يرى فريك أنّ شرب الغازي يشكل موضوع عادات دقيقة، وتستعمل في شربه كؤوس من قصب الخيزران، تلك الكؤوس التي يتم غطسها في الجرة الجماعية التي تحتوي على الشراب المخمر."[12] إنّ العادات هي المتحكمة في هذا المقام من التواصل، فالفلاحون في هذا المقام لا يتواصلون باللّغة اللّفظية فقط، بل يتواصلون من خلال نوع الشراب وطريقة تقديمه، وحتى الكؤوس التي يقدم فيها، فالتواصل هنا تواصل بعلامات غير لغوية، يحيلنا إلى التواصل السيميائي، ويلخص فريك هذه الطقوس المتّبعة أثناء الشرب في الجدول الموالي:

[12] – رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص206.

مراحل اللّقاء	مراحل التخاطب	مقاصد أفعال	الوظيفة
1–تذوق الشارب	1– استدعاء –سماح بالشرب	1–تعبير السلوك الاجتماعي	إقامة سلوكات مختلفة وعلاقة الاحترام بين المشاركين
2– الشرب (مرحلة التباري)	2– تداول الجرة	التعبير عن السلوك الاجتماعي والتعريف بالمقام تناول موضوع الحديث	–توزيع مؤونة اللّقاء (تداول المشروب والكلام)
3– الشرب (مرحلة اللّعب)	3– تخاطب ثرثرة مداولات 4– ممازحة	– غرض أسلوبي	–تبادل المعلومات،محاضرة حكم، تعديل المشاكل ذات الحوار المتزن. –تأسيس الفرح والغبطة تعديل المشاكل التي يجب أن يكون أساسها التأهيل لاستعمال أساليب خطابية خاصة (أغاني– أشعار)

الجدول[13]

من الملاحظ أن فريك في من خلال هذا الجدول قد قسم مراحل اللّقاء إلى ثلاثة مراحل متعلقة بشرب الغازي والمراحل التي يمر بها من التذوق إلى الشرب، وقسم الشرب إلى مرحلتين هما التباري واللّعب، ولكلّ سلوك من هذه السلوكات مدلول يحمله، كما أن كلّ كرحلة من هذه المراحل تتصل بمرحلة من مراحل التخاطب، إذ لا يكون التخاطب بنفس الدرجة، وفي هذا التخاطب نجد تواصلا بعلامات لغوية وأخرى غير لغوية، حيث يمثل الاستدعاء في المرحلة الأولى علامة لغوية لفظية، بينما السماح في حدّ ذاته وعدم الإنكار يمثل

[13] – رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص207.

علامة غير لغوية، وفي مرحلة التباري، يكون التواصل بينهم غير لغوي، فالتباري وتداول الجرة من أجل إبراز وإظهار القدرة على الشرب وسيلة من وسائل التواصل فيما بينهم، والتحدي بينهم بالأفعال وليس بالعلامات اللّفظية، ليخلص في الأخير إلى مرحلة اللّعب، وهذه المرحلة نجد فيها مرحلتين من مراحل التخاطب أولاها (تخاطب، ثرثرة، مداولات) وثانيها (ممازحة). فالملاحظ أنّ لهذه المرحلة من التخاطب أغراض ومقاصد تختلف من مرحلة إلى أخرى من مراحل اللّقاء، وكلّ مقصد من هذه المقاصد مرتبط بوظيفة مميّزة له، فالمرحلة الأولى وهي مرحلة أولية يكون المقصد من ورائها تعبير عن السلوك الاجتماعي أو التعريف به والغاية منه الجمع بين المشاركين بهذه السلوكات المختلفة، وتوطيد علاقة الاحترام بين المشاركين في هذا الطقس، بينما تكون المرحلة الثانية والتي يبدأ فيها شرب الغازي ويكون فيها التباري بين المشاركين فهي مرحلة إنجاز وتطبيق للمرحلة الأولى فالغرض والمقصد منها هو التعريف بالمقام وطرح موضوع الحديث الذي سيكون موضوع للنقاش والتداول في المرحلة الموالية، وفي هذه المرحلة توزع المؤونة ويكون ذلك مقترنا بالشرب والكلام، فهذه المرحلة هي مرحلة تمهيدية وتحضيرية للمرحة النهائية، والتي هي المقصد من المرحلتين السابقتين، فهذه المرحلة تعد مرحلة حوصلة لما سبقها وتتويج للتحضيرات ففيها يعلن عن الفرح ويأسس له، وعلى ذلك يكون المقصد من (التخاطب والثرثرة والمداولات والممازحة) هو غرض أسلوبي متعلق بطريقة التأدية، وطريقة الكلام، فمقام التخاطب هو الكفيل بتأويل هذه الأقوال والأفعال، وهو الذي يمنحها خصوصيتها ويعطيها دلالتها، ويتم من خلالها التواصل والتفاهم بين المتخاطبين في هذا الطقس، والوظيفة المقترنة بهذه المرحلة هي الإصلاح والتوجيه وحلّ المشاكل بطريقة سلسة، وتحقيق التفاهم بين الحاضرين بأساليب لبقة غير مباشرة، يمتزج فيها ما هو لغوي بما هو غير لغوي، ويختلط

فيها الجدّ بالمرح، وتستعمل فيها اللّغة استعمالا فنيّا في هذه الأشعار والأغاني.[14]

القدرة التواصلية مقابل القدرة اللّغوية:

يجرنا هذا البحث إلى مفهوم القدرة التواصلية والتي تختلف عن القدرة اللّغوية عند المدرسة التوليدية، والتي تقتضي العلم بقواعد اللّغة وألفاظها من أجل التواصل مع جماعة لغوية معينة، وكذا المعرفة بقواعدها النّحوية التوليدية، "والنحو التوليدي لأيّة لغة، هو تلك المعرفة اللاّواعية بنظامها التركيبي، الدلالي والفونولوجي، والذي يسمح للمتكلم لإنتاج عدد غير محدود من الجمل الصحيحة نحويّا ودلاليّا، بفضل الطاقة الترددية (récursive) لقواعدها."[15] غير أن المعرفة بقواعد اللّغة –القدرة اللّغوية– فقط وبألفاظها وجملها المتولدة لا يكفي لتحقيق التواصل الفعال، ولذا طرح هايمز ورواد إثنوغرافيا التواصل مفهوم القدرة التواصلية، والتي تقتضي العلم بمقامات التواصل المختلفة، كما تقتضي استحضار الرصيد الثقافي للمجتمع، والقدرة التواصلية في اثنوغرافيا التواصل "هي المعرفة التي يحتاجها المتحدث أوالمستمع، ولكنّها أوسع بكثير في نطاقها، وأشمل في معناها من القدرة اللّغوية في اللّسانيات التوليدية، فالقدرة اللّغويّة أو معرفة النظام اللّغوي عند المتكلم –المستمع الأصيل لا تشكل إلا جزءا من القدرة التواصلية، أضف إلى ذلك أن جزءا كبيرا مما هو عامل في السلوك اللّغوي ملغى بقرار منهجيّ من التشكيل اللّغوي الذي بناه اللّساني، وبالتالي هل يعتبر خارج مجال اللّسانيات؟

إنّ القدرة التواصلية تتضمّن ما هو أشمل من المعرفة بالصيغ اللّغوية، وهي معرفتنا أو ربما قدرتنا على استخدام الصيغ اللّغوية بطريقة مناسبة

---

[14] – ينظر: رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص207 وما بعدها.

[15] – شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1، 2004، ص41.

وملائمة للموقف التواصلي، إنّ ما ندعوه بالقدرة التواصلية –كما قال هايمز– أوسع مجالا من القدرة اللّغوية، بل إن القدرة التواصلية تشتمل على القدرة اللّغويّة."[16] وهذه القدرة تمثل استعدادات أولية وخزانا معرفيا لغويا للمتكلم، ويبقى على هذا الأخير أن يتعلم كيفية استخدام هذا الرصيد والخزان وفق المقامات المتنوعة، وبالنّظر كذلك إلى العادات والتقاليد. من خلال ذلك نتمكن من "معرفة وتوقع من سيتكلم؟ ولمن يوجه الكلام؟ متى يجب عليه أن يتكلم أو أن يبقى صامتا؟ ومن من الأشخاص يستطيع التكلم معهم؟ وكيف يتكلم مع الأشخاص المتفاوتين في المراتب؟ وما هي الأفعال الكلامية المناسبة لمقامات المختلفة؟"[17] وهذا ما نصطلح عليه القدرة التواصلية، والتي لاتقتصر على معرفة قواعد اللّغة ومعجمها اللّغوي.

إن معرفة قواعد اللّغة وألفاظها لا يكفي لتحقيق تواصل فعال، ووجب معرفة الاستعمالات المختلفة للغة، ونذكر الاستعارة على سبيل المثال، والتي تمثل بالنسبة "لعدد كبير من النّاس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي. إنّها تتعلق في نظرهم، بالاستعمالات اللّغوية غير العادية وليس الاستعمالات العادية، وعلاوة على ذلك، يعتقد النّاس أنّ الاستعارة خاصية لغوية تنصبّ في على الألفاظ وليس على التّفكير أو الأنشطة. ولهذا يعتقد أغلب النّاس أنّه بالإمكان الاستغناء عن الاستعارة دون جهد كبير. وعلى العكس من ذلك، فقد انتبهنا إلى أنّ الاستعارة حاضرة في كلّ مجالات حياتنا اليومية، إنّها ليست مقتصرة على اللّغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي

---

[16] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص209.

[17]– muriel Saville–troike, theethnography of communication, blackwell publishing ltd, 3rd ed, 2003, p18.

نقوم بها أيضا. أنّ النّسق التصويري العادي الذي يسيّر تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس."[18]

تمثل الاستعارة باعتبارها حاضرة في أعمالنا وتفكيرنا وأنشطتنا اليومية، عمادا أساسيا يجب الالمام به من أجل تحقيق القدرة التواصلية، فالاستعارة ليست متعلقة باللّغة فقط، كما عرّفها البلاغيّون من قبل بأنها استعمال اللّفظ في غير موضعه، أو "أنها تمثل شكلا من أشكال الانزياح الأسلوبي للّغة فقط، إنّها نظام من الأنظمة السيميائية، وفيها تنسجم القيم الأكثر جوهرية في ثقافة ما مع البنية الاستعارية لتصوراتنا الأكثر أساسية"[19]. والاستعارة قد تستعمل استعمالا متعلقا بالأعراف والثقافة. فتكون بذلك تمظهرا وتجسيدا للمجتمع الذي تستعمل فيه، وتمتلك الاستعارة من خلال البعد الثقافي والاجتماعي كينونتها وحضورها في العملية التواصلية.

نستعمل في القدرة اللّغوية نظاما لسانيا، أمّا في القدرة التواصلية حسب إثنوغرافيا التواصل فتكون الأنظمة المستعملة أنظمة سيميائية، وخاصة في سيمياء الثقافة التي "تعنى بدراسة الأنظمة الثقافية باعتبارها دوالا وعلامات وأيقونات وإشارات رمزية لغوية وبصرية، بغية استكناه المعنى الثقافي الحقيقي داخل المجتمعي، ورصد الدلالات الرمزية والأنتروبولوجية والفلسفية والأخلاقية"[20]. وهذا ما يتجسد في اثنوغرافيا التواصل من خلال دراسة القدرة التواصلية، والمتعلقة أساسا بمقام التواصل.

تشمل القدرة التواصلية القدرة اللّغوية، ذلك أنّ اللّسانيات جزء من السيميائيات والأنظمة السيميائية حوي داخلها أنظمة لسانية لغوية، فلا تلغي

---

[18] – جورج لايكوف، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2009، ص21

[19] – المرجع نفسه، ص41.

[20] – جميل الحمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، ط1، 2015، ص295.

القدرة التواصلية القدرة اللّغوية، بل على العكس من ذلك، فهي تستند إليها وتعتمد عليها كأساس رئيس، وإنّما تراها قاصرة لوحدها إذا لم نضف لها قدرات غير لغوية خاصة منها مقام التواصل، وأشكال التواصل غير اللّغوية. وفي هذا الصدد "ميّز جوزيف دو فيطو بين أربعة أنواع من المقامات هي:

أ– المقام الفيزيائي (physipue): الذي يضم المجال المحسوس أو الواقعي: طلّية، مقهى، بيت ... حيث تختلف طبيعة الموضوعات التي يدور حولها الحوار من مكان إلى آخر، وكذا طبيعة الأسلوب المعتمد.

ب– المقام الثقافي (Culturel): ويضم نمط العيش، والمعتقدات، والقيم، والسلوكات، والقواعد التي تؤسسها مجموعة بشريّة لتحديد ما هو حلال وما هو حرام، وما هو صائب وما هو خاطئ.

ج– المقام الاجتماعي–النّفسي (Socio–psychologipue): ويضم العلاقات الاجتماعيّة المختلفة التي تربط بين أفراد مجموعة لسانيّة معيّنة، والقواعد الثقافيّة لمجتمع ما، وكذا مختلف التقاليد والأعراف والعادات.

د– المقام الزّماني (temporel) ويقصد به الزمن الواقعي أو المتخيّل الذي تجري فيه العمليّة التواصلية."[21]

إن كلّ تواصل يتحاشى هذه المقامات ويعتمد على المعاني المعجميّة فقط يكون تواصلا ناقصا، وعليه يعد مقام التواصل عاملا أساسيا في الفهم والتأويل، وفي نجاح العمليّة التواصليّة، وعلى هذا الأساس وضع هايمز مخططه للتواصل، والذي أبرز فيه عوامل التواصل وارتباطها بالمقام.

[21]– حسن بدوح، المحاورة مقاربة تداوليّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012، ص37.

نموذج التخاطب عند ديل هايمز:

وضع هايمز نموذجا للتخاطب مستثمرا فيه مفهوم القدرة التواصلية في إثنوغرافيا التواصل، وقد "اعتمدت الدراسة الإثنية للاتصال Ethnographie de la communication مفهوم الملكة الاتصالية/التبليغية: لكي يقيض للفرد الكلام، لا بدّ له أن يحسن استعمال اللّغة بكيفية مناسبة تتماشى والمقامات والأحوال المتنوعة، وهذه الملكة التبليغية/إتصالية ضمنيّة إلى حدّ بعيد، وتكتسب في صلب التخاطب، وتتضمّن القواعد التي تعنى بجوانب مختلفة: حسن تسيير (التداول على الكلام، معرفة ما يجب قوله في هذه الحالة أو تلك، معرفة مساوقة الإيماءات مع العبارات المتفوه بها، مع عبارات وإيماءات المتلفظ المشارك ومعرفة مجاراة الغير ...، ويتعلق الأمر في المحصلة بإتقان السلوكات التي تفرضها مختلف أنواع الخطابات."[22] وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ وظائف الكلام تظهر بالتوازي مع مقام التواصل، وهذه الوظائف ليست جلية وظاهرة للعيان، بل هي ضمنية إلى حدّ بعيد، ومعقدة ومتنوعة بحسب المقام وبحسب إتقان المقام التواصلي والخطابي، ذلك أن الملكة التواصلي متغيّرة "باستمرار وفق تجارب كلّ فرد، بالإضافة إلى هذا، يتوفر الفرد نفسه على عدة ملكات تبليغيّة/اتصالية عندما يتفاعل مع جماعات متنوعة، كما نجد استعمالا لمفهوم الملكة الخطابية (مانغونو،1984) لدلالة على القدرة التي يجب على الفرد أن يتمتع بها لإنتاج ملفوظات تنتمي إلى تشكيلة خطابيّة محددة."[23]

يتضمن النموذج الخطابي لهايمز ثمانية عناصر هي: (الإطار أو المقام، المشاركون في التخاطب، المقاصد أو الأغراض، الأفعال، المفتاح، الأدوات، الأعراف، النّوع.) وتعد عناصرا للنشاط الكلامي وهي تعمل سويا بعضها مع

---

[22] – دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص23.

[23] – المرجع نفسه، ص23.

بعض، ومن خلالها يمكن إبراز وظائف التواصل، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ "وظائف الكلام لم تبرز هنا بشكل ظاهر في هذا النموذج إلا بالموازاة مع مؤلفات المقام التواصلي، لذا فإنّ دور وظائف الكلام عند هايمز جد معقدة ودقيقة بالمقارنة مع تلك التي قدم لنا جاكبسون في رسمه المبسط للتواصل، إنّ ما يمكّننا من إظهار هذه الوظائف هو الدراسة المفصلة لبنية ظاهرة التواصل وعلى الخصوص تلك العلاقات بين العناصر المؤلفة لتلك البنية."[24] وسيبرز ذلك من خلال شرح هذه العناصر بالاستعانة بمثال من الحياة الاجتماعية، وقد استعان رايص نور الدين في كتابه نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة بمثال من الحياة الاجتماعية الفرنيسة يتمثل في غذاء عائلي، وفي هذا الصدد سنحاول إبراز التعالق بين هذه النظرية التواصلية –إثنوغرافيا التواصل– وبين السيمياء، وبالتحديد سيميساء التواصل وسيمياء الثقافة.

1– دور الإطار cadre (Setting) في تحقيق التواصل الفعال:

يمثل مفهوم الإطار منطلقا أساسيا في إثنوغرافيا التواصل، ويشمل "الإطار الفيزيائي الزمن والمكان وكذا الإطار النّفسي، ومثال ذلك: بيت الطعام، في دار غنيّ، في ساعة غذاء وفي يوم من أيام يوليوز، وذلك في جوّ عائلي يسوده الانشراح والغبطة."[25] وكل هذه الأطر هي بمثابة أدلة وعلامات غير لغوية، مرتبطة بمجال السيمياء، كون هذا الإطار الزماني أو المكاني له أثر وتأثير بارز على العملية التواصلية، لهذا العنصر علاقة وثيقة بالعنصر الموالي وهو المشاركون في التخاطب، حيث "أنّ إطار المشاركة في تحليل المحادثات وغيرها من الأشكال اللّغوية التفاعليّة، يعد من المقاييس التي تمكن من بيان ما يخصص مقام التواصل: ففي نطاقه نتناول بالدّرس المشاركين

[24] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص211.

[25] – المرجع نفسه، ص212.

وعددهم وصفتهم وما يربط بينهم من علاقات أثناء تبادل تواصلي."[26] إنّ هذه العلامات الخصوصية المتعلقة بالمشاركين في التخاطب تعد من صميم الدرس السيميائي، على اعتبار أنّ السيمياء لا تهتم بالعلامات اللّغوية فقط، بل وتهتم كذلك بالألوان والحركات والإيماءات، وكلّها متوفرة في إطار المشاركة، وسيظهر هذا جليا في العنصر التالي.

2- تأثير المشاركين في التخاطب Participants في العملية التواصلية:

بالعودة إلى مخطط التواصل عند جاكبسون نجد أنّ هذا الأخير جعل المرسل والمرسل إليه هما طرفا العملية التواصلية، وحصر التواصل بينهما، فهما المشاركان الفاعلان في العملية التواصلية، في مقابل ذلك نجد المشاركين في الخطاب في نموذج هايمز أوسع مجالا، فهو يشمل عدد من المشاركين في هذه العملية أكثر منه في نموذج جاكبسون، وتحت مصطلح المشاركون في الخطاب لا يدرج هايمز "المرسل والمستقبل فقط بل كلّ من حضر وشارك بوجه من الوجوه في الحديث سواء تناول الكلمة أم لا (فهناك ملاحظين صامتين وسلوكهم غير كلامي، ومجرد حضورهم الفيزيائي يمكن أن يؤثر على عملية التواصل)، وسواء وجهنا لهم الخطاب أم لا (وذلك بتفكيرنا فيمن يسترقون السمع خلف الباب...)، وبالنّسبة للمشاركين في التخاطب يمكننا أن نحدد الخصائص المميّزة والممكنة من النّاحية الاجتماعية الثقافية والنّفسية،"[27] وهذا التحديد للخصائص المميّزة للمشاركين في عملية التخاطب، وحتى بالنسبة للحاضرين هو تحديد سيميائي يبرز من خلال تتبع السلوكات غير الكلامية بالنسبة للحاضرين في التخاطب، وإن لم يشاركوا في الخطاب بصيغة لفظية مباشرة، فإن حضورهم وتصرفاتهم وامتعاضهم الذي يظهر على وجوههم، أو

---

[26] – باتريك شارود دومينيك مانغونو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري/حمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008، ص91.

[27] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص212.

في حركاتهم وتصرفاتهم وإشاراتهم وحتى سكوتهم –فكما يقول القدماء السكوت علامة الرّضا– يؤثر في عملية التواصل، فلو افترضنا مخَاطِبا يوجه الخطاب إلى مخَاطَب، ثم يكتفي هذا الأخير بالسكوت أو الانصراف أو الامتعاض أو الحديث غير المفهوم، فإن التواصل بينهما في هذه الحالة ليس لفظيا، كما أن التواصل يتأثر بحضور أطراف غير معنية بالخطاب، مع الأخذ بعين الاعتبار الحاضرين وكذا الإطار الزماني والمكاني والنّفسي، "ومادام التواصل نشاطا اجتماعيا– كما قال كوفمان– فهذا يفرض وجود المرسل والمتلقي في كلّ مسار تواصلي، فوجود المتلقي قد يكون فيزيائيا وقد يكون متضمنا في حسبان المرسل. إذا كلّما أراد المرسل بناء خطابه الذي سيتوجه به إلى المتلقي كلّما وضع في حسبانه استعدادات هذا الخير الذهنيّة والنّفسية ... إن المتلقي بهذا المعنى بمثابة مراقب ضمنيّ وهذا ما يجعل المرسل حريصا على انتقاء الملفوظات والاستراتيجيات البرهانيّة الملائمة. والشيء نفسه يقال عن المتلقي الذي يشكل حضور المرسل بالنسبة إليه مسألة ضرورية. ففي الوقت الذي يقوم فيه المتلقي بفك تسنين الرسالة التي استقبلها من المرسل يقوم بقراءة ضمنيّة لطبيعته الذّهنيّة والمعرفية، وانطلاقا من تخميناته وتوقعاته يختار العبارات الملائمة"[28] ونعود هنا إلى مصطلح إطار المشاركة cadre participatif، وهذا الأخير هو "ترجمة لمفهوم participation framework الذي وضعه قوفمان Goffman (1987)، إن المشاركين في التفاعل/التخاطب يمكن أن يكونوا أكثر من اثنين، كما أنّ دورهم يمكنه أن يتغيّر، يميّز قوفمان إذن بين المشاركين المؤهلين ratifiés، الذين هم منخرطون مباشرة في التفاعل/التخاطب، والشواهد bystanders الذين يسمعون لكنهم خارج لعبة التخاطب، وضمن هؤلاء الأخيرين يوجد من هم معترف بهم بوصف كذلك من قبل المتكلم، في حين أنّ البعض

[28] – المحاورة: مقاربة تداوليّة، ص33.

الآخر يستمعون على غفلة منه، في الغالب الأعم يوفر المتكلم للمشاركين المؤهلين (من خلال موقع الجسم والنظرة...) أمارات تدل على أنه يتوجه إليهم مباشرة، ولكن قد يحصل أن يتوجه إلى مشاركين لا يعدّهم كذلك من خلال موقفه."[29] يمكن من خلال ما سبق أن نرسم مخططا للمشاركين في عملية التخاطب :

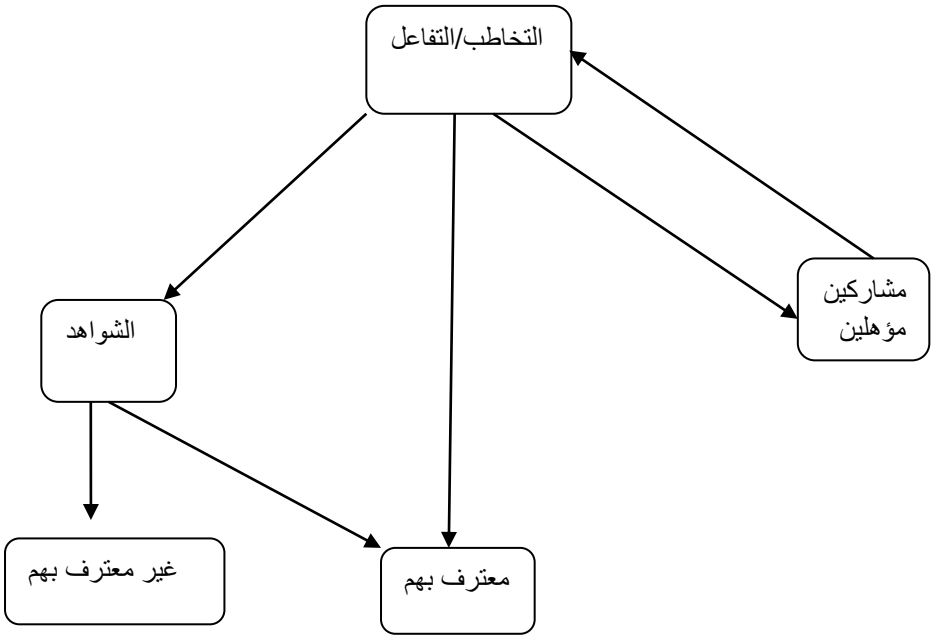

يربط المخاطَب علاقات مع المشاركين المؤهلين مباشرة من خلال توجيه الخطابِ إليهم، ولكن في الوقت نفسه يأخذ الحاضرين الآخرين (الشواهد المعترف بهم) بعين الاعتبار، وقد يوجه لهم الخطاب بأسلوب غير مباشر، عن طريق التعريض والاستعارة الكلامية أو عن طريق حركات وإيماءات الموحية بأن الخطاب كذلك يهمهم، وفي الآن نفسه يؤثر المخاطِب في الشواهد غير

[29] – المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، ص13.

المعترف بهم وهو الذين لا يراهم المخاطِب، ولا يسمعهم أمّا هم فيسترقون السمع والنظر، فيتأثرون بالخطاب ويستقبلون الرسالة، ففي هذا العنصر من النموذج الخطابي الذي وضعه هايمز، يوسع من دائرة التخاطب، سواء أتعلق الأمر بالمتخاطبين أو بآليات التخاطب على اعتبار استعماله لعلامات لغوية متمثلة في الكلام المباشر، وكذا علامات غير لغوية متمثلة في الحركات والنّبر والتنغيم والإشارات وملامح الوجه أثناء الحديث، وحتى مكان الكلام في حدّ ذاته. ومن هذا المنطلق نجد بأنّ "الفعل السيميائي في الواقع، يدخل الظروف التي ينتج فيها، حيث يمكن لنفس الرسالة أن يعبّر عنها بعدة إشارات والتي يختار المرسل من بينها الإشارات التي يراها الأصلح في الظروف التي يقوم بتقويمها، ومن جهة أخرى، نفس الإشارة قادرة على حمل عدة رسائل، والمتلقي بدورة يختار من بينها الإشارة التي تبدو له الأكثر احتمالا، وذلك بتقويمه الخاص للظروف. هنا يتدخل متغير جديد له أهميّته، وهو تقويم الظروف التي تكون في أحسن الأحوال، هي نفسها من الجهتين."[30] فتقويم الظروف في السيميائية هو عينه اعتبار مقام التخاطب، والفعل السيميائي يتساير مع المشاركين في التخاطب، وتكتسب العلامة السيميائية مدلولها من خلال المقام الخطابي الذي قيلت فيه، وكذا من خلال ثقافة المشاركين في التخاطب، وهنا يبرز مبدأ القصدية في التواصل، والذي يعد من المبادئ التي تقوم عليها سيمياء التواصل، وذلك حين يتوجه المخَاطِب إلى مشارك بعينه، إما لفظيا أو عن طريق الأمارات غير اللّفظية، قاصدا توجيه رسالة له مباشرة، أو لغيره من المشاركين في التخاطب، وبصفة مباشرة أو غير مباشرة، تصريحا أو تعريضا، بعلامات لغوية أو غير لغوية، فـ"قصد التواصل يبدو إذن كمعيار ملاحظ في

---

[30] – جاكبسون، مونان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، تر: عز الدين الخطابي/زهور حوتي، منشورات عالم التربية، المغرب، ط1، 2007، ص99.

سلوك المرسل الذي له خيار إنتاج الإشارة أم لا، أيضا في سلوك المتلقي والذي له خيار الرّد أو عدمه، وإعطاء جواب ما أو جواب آخر، ولكنّه يجيب، بطريقة مختلفة حسب تعرفه أو عدم تعرفه على القصد الذي يريد المرسل أن يوصله."[31] ويظهر هذا جليّا في الحياة اليومية بكثرة، كما يظهر في الأعمال المسرحية، ذلك أنّ "المسرح يستثمر كثيرا من هذا التفاوت، لاسيما في الكوميديا، في هذا المضمار. تتحدث كيربرا–أوركيوني عن الإستعارة التواصلية trope communicationnel حيث (إن المخاطب، الذي هو مبدئيا المخاطب المباشر، لا يشكل في المحصلة سوى مخاطب ثانوي)،"[32] وفي هذه الحالة يكون التأويل هو الحكم في معرفة مقاصد المرسل، فقد تفهم الرسالة الواحدة بأشكال متعددة، وذلك راجع إلى المقام وإلى ثقافة كلّ المرسل والمتلقي.

3– دور الأغراض/(المقاصد) Finalité (ends) في تحقيق القدرة التواصلية

تكلمنا في العنصر السابق عن قصد التواصل، وكيف أن هذا القصد متضمن في كلّ من سلوك المرسل والمتلقي على السواء، وقصد التواصل يعد من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها سيمياء التواصل، وقد جعل هايمز المقاصد أو الأغراض عنصرا رئيسا في مخطط التواصل الخاص به. يتفرع هذا العنصر عند هايمز إلى مكونين هما غرض التواصل ونتيجته، "وإذا كان هايمز يفرق بين هذين المكونين الفرعيين فذلك لأن غرض التواصل لا يلتقي دائما مع نتيجته، فمثلا: يكون هدف الغذاء العائلي الذي أتينا على ذكره هو أن يتمكن كل فرد من أولئك الأفراد من كفِّ الجوع، وكذا التمتع بالراحة لفترة ما بعد العمل، وهذا على ما يبدو غرض ظاهريّ. أمّا الغرض الباطني أو الخفيّ فهو تمكين كلّ فرد منهم أن يعيد ربط علاقات العائلة بطريقة نشاط ما ذو أهمية

---

[31] – المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن ، ص113.

[32] – المرجع نفسه، ص13–14.

ثقافية كبرى (زيادة على اهتمام الفرنسيين بالطعام الفاخر)، وهنا تلائم النتيجة الغرض أو القصد إذا أكل كا فرد بشهيّة حتى شبع، أضف إلى ذلك إذا أحس بشعور إيجابيّ إزاء المشاركين الآخرين"[33] وهنا نستحضر الوظائف التي قرنها جاكبسون بعوامل التواصل، حيث جعل لكل عنصر وظيفة خاصة به، وفي كل نصّ أو خطاب تكون هناك وظيفة مهيمنة وظاهرة أكثر من الوظائف الأخرى.

إن تحقق مقاصد المرسل مرهون بعدة عوامل، وهذه العوامل منها ما هو متعلق بالمشاركين في التخاطب ومنها ما هو متعلق بالرّسالة، كما يكون المقام عاملا من عوامل النّجاح في تحقيق المقاصد أو الفشل في تحقيق المقاصد، وتكون بذلك عملية التواصل لم تحقق الغرض منها، "يرى بريطو أساسا، نوعين من الفشل فشل بسبب سوء الفهم وفشل بسبب الغموض."[34] فالسبب قد يكون إمّا من طرف المرسل باقترافه خطأ في التوصيل وفي اختبار العلامة المناسبة، كما يمكن أن يكون السبب متعلقا بكلّ منهما، وذلك إذا كان النظام الذي يستعملانه مختلفا وحسب كلّ منهما أنهما يستعملان النظام نفسه.

4- علاقة الأفعال les actes (acts) بمحتوى الرسالة:

تطرق هايمز إلى كلّ من عنصر الإطار والمشاركين في التخاطب وكذا المقاصد والأغراض ورأينا كيف أن هذه العناصر التواصلية تصب في صميم البحث السيميائي، وتعد هذه العناصر ذات أهميّة بارزة، في نموذج التخاطب، والأهمية نفسها يكتسيها عنصر الأفعال، "وهذا المصطلح وإن لم يكن قد اختير جيدا فهو يشمل محتوى الرسالة (أو موضوعها Théme)، وكذا شكلها، فأوّل هذه العناصر الفرعيّة يحدد موضوع التحاور، والثاني وإن كان شيئا ما غامضا فإنّه يشير للأسلوب العام، أي هل نتحدث عن رسالة ذات طابع شعري، أو

---

[33] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص212-213.

[34] – المرجع نفسه، ص100.

على العكس من ذلك تنطبع بأسلوب مرجعي Référentiel خالص؟"[35] ونستحضر في هذا العنصر الوظائف عند جاكبسون حين جعل لكل نوع من النصوص وظيفة مهيمنة عليه، من بين الوظائف الأخرى، مع وجود الوظائف الأخرى ولكن بدرجة أقل، فكل الخطابات التي تلقى في مقام معيّن تكتسب أبعادها من خلال نوع الخطاب الموجه، والشكل الذي ألقي به، وهذا العنصر متعالق بشدة مع العنصر الموالي وهو المفتاح.

5- دور المفتاح key في تحديد مقاصد المتواصليين:

يرتبط هذا العنصر بالعنصر السابق علاقة الأفعال les actes (acts) بمحتوى الرسالة:

وهو يتعلق بشكل تأدية الكلام، وبدرجات الصوت من نبرٍ وتنغيم، إذ يختلف معنى الكلمة من خلال الأداء الفعلي للكلمة، وهذا العنصر يتشابك مع العنصر السابق، إذ أنّ كلّ نوع مع من النصوص مقترن بوظيفة معيّنة، وكل نص من هذه النصوص يؤدى بطريقة مختلفة عن النصوص الأخرى، "وهو ما يمكننا من تمييز الخصائص التي يجري عليها النشاط الكلامي في إطاره اللّغويّ، وكذا في إطار مساعدات الكلام –Eléments paralinguistipues ويمكننا مثلا، أن نمر من موقف جدي إلى موقف هزلي، من نبر خفيف إلى نبر حاد، من بكاء إلى ضحك...إلخ ومثال ذلك: أنّ نبر المشاركين في التخاطب تتطور أثناء هذا الغذاء العائلي، فمن النّصيحة المقدمة بصوت خفيف إلى النّكد والهيجان الحاصل بسرعة...إلخ."[36] وهذه الوحدات المساعدة للكلام لها دور بارز في فهم المقصود من العبارات اللّغوية، خاصة إذا اقترنت بحركات وإيماءات غير

---

[35] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص213.

[36] – المرجع نفسه، ص213.

لغويّة، وبهذا تكون هذه الوحدات مفتاح التأويل الصحيح، خاصة عند ربطها بالمقام الذي أنجزت فيه.

6- الأدوات instrument (instrumentalites) باعتبارها أنظمة دلالية:

لا بد للتحقق التواصل من أدوات يقوم عليها ومن قنوات يمر عبرها، وهذه القنوات عبارة عن أنظمة دلالية، وهي ليست مقتصرة على الأنظمة اللّغوية بل هي شاملة لكل أنواع الأنظمة، اللّغوية منها وغير اللّغوية مثل نظام الأكل واللّباس والموضة والمرور وغيرها من الأنظمة غير اللّغوية، إضافة إلى الوحدات المساعدة للكلام –كما رأينا في العنصر السابق–، تعمل هذه الأنظمة مع بعضها البعض، غير أن درجة حضورها مختلفة حسب مقام التواصل، وقد جعل هايمز لوسائل التواصل وللأنظمة المعتمدة في التواصل أهميّة بارزة في إثنوغرافيا التواصل، "ومن المستحسن أن نقسم هذه الأنظمة إلى قنوات لسانيّة وإلى قنوات مساعدة للكلام ومنها الحركاتية Kinésipue والتجاوريّة Proxémipue إلخ."[37] وهذا التقسيم يعين المحلل على وصف الأنظمة المستعملة في مقام التواصل، حيث تتغير الأنظمة وتتعدد بحسب المقام، فإذا كنت مدعوا إلى عشاء عند شخص ثري جدّا، فسيصبح نظام اللّباس ذا أهميّة بارزة، وتصبح الحركات التي تقوم بها أثناء الأكل وكميّة الأكل ونوعيته ومكان الجلوس وكيفيته وحتى العطر الذي تضعه ذا أهمية كبيرة في هذا المقام، كما أن المكان والزمان في حد ذاتهما يمثلان عناصر سيميائية دلالية، فالمكان في هذا المقام هو "واقعة سيميائية؛ لا تتجسد في المحاكات التقليدية للواقع، بل بوصفه حاملا لدلالات ثقافية ولغوية مرجعيّة نسقية أحيانا، وتخيّليّة معرفية أحيانا أخرى، ومن ثمّ يمكن اعتباره عنصرا مهما له قدرته الخاصة على تداعي

[37] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص214.

الأفكار،"[38] فالمكان في التواصل قريب من المقام ولصيق به، فمن خلاله يحدد مقام التواصل، وهو يعد من الأنظمة الدلالية التي يعتد بها في تحقيق التواصل، ويعد هنا المكان نظاما دلاليا مثله مثل نظام الموضة واللّباس، فمواصفات المكان تحمل أبعاد ثقافية واجتماعية هامة في إثنوغرافيا التواصل، وإلى جانب المكان لا يقل عنصر الزمان أهمية عنه، حيث أن اختيار تاريخ بعينه، يكون له بعد ثقافي واجتماعي وتواصلي، فالعشاء العائلي إذا كان في رأس السنة الميلادية فهو يحمل دلالات دينيّة وثقافية، واستحضار هذا التاريخ أو الحديث عنه يبين الانتماء الثقافي، كما أن التلاقي في عيد الأضحى عند المسلمين يحمل دلالات ثقافية تاريخية، فكل من المكان والزمان يؤثران على عمليّة التواصل ويوجهانه. كما أنّ القصد من كلّ هذه التحضيرات وكلّ هذا التكلّف هو إبراز التحضّر والمكانة، ويكون ذلك بالاستعانة بمختلف الوسائل والأنظمة اللّغوية منها وغير اللّغوية.

7–مساهمة الأعراف Normes (Norms) في التأويل الموسوعي والاسترجاع:

يرتبط هذا العنصر بالتأويل والموسوعة الثقافية للجماعة، وينقسم هذا العنصر إلى قسمين أساسيين هما "أعراف التفاعل وأعراف التأويل Interpretation، فالأعراف الأولى تشير إلى الميكانيزمات التفاعليّة للتحاور مثل اللّف والدوران في الكلام، والتوقفات والتداخلات، والسكوت...إلخ. والأعراف الثانية تشير إلى معنى الرّسالة كما أرسلت واستقبلت، وذلك باستحضار أعراف التفاعل الاجتماعي، ونسق المقتضيات الاجتماعيّة الثقافية للمشاركين...إلخ."[39] ولذلك يفترض هذا العنصر التأويل باستعمال الموسوعة وليس المعجم، فهذه الأعراف تعد عاملا مهما في تحقيق التواصل، وهذا العامل

---

[38] – عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص190.

[39] –نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص215.

هو عامل غير لغويّ، إنه عامل سيميائيّ باعتباره يدخل عوامل واعتبارات غير لغوية في عملية التواصل، ويحضر هذا العنصر في مقام التواصل بصفة كبيرة

إنّ كلاّ من أعراف التفاعل وأعراف التأويل، "يخضعان جميعا للاستجابة أو الفعل العائد: Retroacation."[40]، ومفهوم الاسترجاع يعد من المرتكزات الأساسية في نظرية التواصل، وهو متعلق بطرفي العملية التواصلية المرسل والمتلقي، ذلك أنّه "يعبر عن التفاعل الدينامي بين المرسل والمتلقي في العملية التواصلية. ذلك أن توجيه رسالة إلى متلقي معيّن في مقام معيّن ينتج عنه بالضرورة رد فعل معيّن (قد يكون بالكلام أو إصدار أصوات معيّنة أو عبر حركات الرأس أو العين...) ورد الفعل هذا هو الذي يساعد المرسل على توجيه الخطوات الموالية في عمليّة الإرسال حيث يعدل أو يعزز،أو يلطف .. في محتويات الرسالة. ولذلك فالمرسل غالبا ما يكون في حاجة ماسة إلى معرفة ردود أفعال المتلقي للاسترشاد بها كي يتمكن من توصيل رسالته بشكل جيّد، وهكذا فهذه العمليّة تضبط سلوك المتكلم وتوجهه في المراحل اللاحقة لاستكمال رسالته حيث يعدل من المحتوى أو اللّهجةأو يغيّر في الشفرة المستعملة، وذلك تبعا لاسترجاع الأثر الذي تلقاه."[41] وعلى هذا الأساس تستمر عملية التواصل بين المتواصلين وتستمر في تصاعد دينامي.

8- نّوع Genre الرسالة وإسهامها في العملية التواصلية :

يتعلق هذا العنصر بنوع الرسالة وجماليّتها، وهو متعلق بمقام التواصل ونوع النص أو الكلام المستعمل، "وهذا العنصر يلزم الباحث بتعريف مقام التواصل (وهو الاسم المأخوذ من دراسة الفلكلور–أي النوع) وذلك بالنّظر إلى المقولات التي تفرق بين أعضاء مجتمع ما، كما توحي بذلك مفرداته، ويعني

---

[40] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص217.

[41] – المحاورة: مقاربة تداوليّة، ص39.

هذا الامر هنا رواية ما أو أنشودة أو قصة خيالية، أو مجرد عقد صفقة تجارية ...إلخ"[42] وهذا بارز في المحاورة التي جرت بين أفراد العائلة في الغذاء العائلي بحركاتها وإشاراتها ولغتها المستعملة، حيث يتعالق المقام بنوع النص المستعمل، ومن خلال المقام يتحدد النوع، ولكل مقام مقال كما قال القدماء.

إن كل عنصر من عناصر النموذج الخطابي لهايمز (الإطار أو المقام، المشاركون في التخاطب، المقاصد أو الأغراض، الأفعال، المفتاح، الأدوات، الأعراف، النّوع.) يتعالق ويرتبط مع العناصر الأخرى، ومن خلال عملها المتناسق فيما بينها يمكن أن نكتشف الوظائف التي تقوم بتأديتها، فنموذج التخاطب لهايمز يرتبط بالتحليل الوظيفي للتواصل، فـ"في الشطر الثاني من مقال هايمز سنة 1967 يشرح لنا هايمز بإيجاز ما يتأتى فعله بعد أن فرزنا عناصر النشاط الكلامي، فعلينا الآن أن نرى كيف تعمل هذه العناصر بعضها في بعض، وهذا ما سيسمح لنا أيضا وفي نفس الوقت بإبراز وظائف ظاهرة التواصل، وعلى سبيل المثال الوظيفة الشعرية للغة التي تكثف العلاقة ما بين النظام اللّغوي والمحتوى ، وكذا شكل الرسالة. وقد حذرنا هيامز في هذه الأثناء من الخطأ الذي يستند إلى حصر وظائف التواصل في تلك العلاقات بين عناصر نشاط اللّغة، ويجدر بنا أن نتساءل عن حاجيات ومقاصد أعضاء مجتمع لغوي." فالوظيفة التي تتعلق بعناصر النشاط الكلامي لا تتحدد إلاّ من خلال تتبع سلوكيات مجتمع معين، مستثمرين بذلك القدرة التواصلية التي تقوم على اكتشاف كيفيات التواصل وآلياته في المجتمع، وليس على معرفة القواعد اللّغوية، دون ان ننفي دور هذه الأخيرة في تحقيق التواصل، لأننا نحتاج إلى المعاني المعجمية من أجل المساعدة على تحليل السلوكات البشرية المقترنة باللّغة، ومن خلال ذلك العمل المنسجم بين سلوكات المجتمع وبين التحليل

[42] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص216.

المعجمي نخلص إلى الوظائف المقترنة بعوامل التواصل، "إن هذه النقطة الأخيرة –بالذات– هي التي تجعل اثوغرافيا التواصل مفارقة للّسانيات الاجتماعية المتنوعة وهي التي تبقى بالضرورة –أكثر بنيانية منها وظيفية حتى وإن راعينا نقطة انطلاقها ومناهجها الكميّة. ولأجل إدراك وظائف اللّغة، يجب الانطلاق من دراسة اثنوغرافية للمجموعة البشرية التي ندرسها لكي يتسنى لنا تمييز الدور الذي يمكن أن يقوم به السلوك الكلامي في ارتباطه مع سلوكات أخرى، وكذا بالنظر إلى السياق الاجتماعي الثقافي الشامل، ومن وجهة نظر اثنوغرافيا التواصل، لا يمكن أبدا أن نعزل الكلام عن المظاهر الأخرى التي يمكن ملاحظتها ولو بتكلف."[43] فلا يمكن أن نفصل ما هو لساني عن المجتمع، فمقامات التواصل المتباينة والمتغيرة هي التي تمكن من اكتساب قدرة تواصلية، تربط اللّغة بالمجتمع التي تستعمل فيه، وتختلف بذلك عن القدرة اللّغوية التي تدرس اللّغة نظريا منفصلة عن المجتمع التي تؤدى فيه، لكن "تنغيما ما أو حركة أو سكوتا ما، يمكن أن يقوم بنفس الدور الذي يقوم به الكلام في التحاور، ومن المهم أن نتمكن من وصف لعبة التناوب التي تحدث بين مختلف العناصر في مقام ما."[44]

إن الخروج من الإطار اللّساني إلى التنغيم والحركات والسكوت يعد من صميم السيمياء، فالتفريق بين وظائف الكلام من خلال هذه الأفعال الكلامية يمنح العلامات مدلولات غير متناهية، وتتولد بذلك العلامات بحسب بحسب اختلاف مقام التواصل، وهذا ما نجده في سيرورة السيميوز الامتناهية في سيمياء بورس، كما يمدنا هذا النموذج التواصلي بمخزون ثقافي مهم، نحتاج إليه في العلامة البورسية وبالتحديد في الثانيانية التي تستوجب استحضار

---

[43] – نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، ص218.

[44] – المرجع نفسه، ص218.

التجارب الثقافية والمعرفية السابقة من اجل تجديد المؤول المناسب للعلامة، وكل علامة تكتسب مدلولها من خلال تأويلها تأويلا مقترنا بالمخزون الثقافي والمعرفي.

قائمة المراجع:

1–باتريك شارود دومينيك مانغونو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري/حمّادي صمود، دار سيناترا، تونس، 2008.

2– جاكبسون، مونان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات،، تص عبد الكريم غريب، تر: عز الدين الخطابي/زهور حوتي منشورات عالم التربية، المغرب، ط1، 2007.

3– جميل الحمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية، ط1، 2015.

4–جورج لايكوف، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال، المغرب، ط2، 2009

5–حسن بدوح، المحاورة مقاربة تداوليّة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ط1، 2012.

6–حنون مبارك، دروس في السيمياء، دار توبقال، المغرب، ط1، 1987.

7–رايص نور الدين، نظرية التواصل واللّسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس المغرب، ط1، 2007.

8– فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة دار الحوار، سورية، ط1، 2007.

9– شفيقة العلوي، محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2004.

10– دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2008.

11– عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2010.

12– muriel Saville–troike, theethnography of communication, blackwell publishing ltd, 3rd ed, 2003.